وصف تلمسان في نظم الاغتراب
لابن خميس التلمساني
قـراءة تـوثيقيـة

د/بوخاري عمر، جامعة ابن خلدون تيارت

Abstract : Not the purpose of this study is to talk about hair alienation and follow allen elements of he problem of his style image symbol and connotation no ris it an attempt to highlight the cryind over the ruins and home not bending for left wa home involuntarily butisan attempt to shed light on the nation and show it within the systems format highlighting the qualities collective maly meterial which is often escatteret of text venegar this kind of historical documents often wat clips of events hidden behint poet and fancies or gestures and rhea that vicious circles remained implicit historical periods within the formats the text .

ليس الغرض من هذه الدراسة هو الحديث عن شعر الاغتراب وتتبع عناصر النص المشكلة له من أسلوب، وصورة، ورمز ، ودلالة، ولا هي محاولة لإبراز البكاء على الأطلال والديار، ولا الحنين لمن غادروا أوطانهم مكرهين، بل هي محاولة لتجلية الوطن وإظهاره داخل نسق النظم، وإبراز صفاته الجمالية ومؤثراته المادية، التي هي غالباً أجزاء مبعثرة داخل النص، إن هذا النوع من الوثائق التاريخية، غالبا ما يكون مطعّماً بمقاطع من الأحداث مخبأة خلف هيامات الشاعر وخيالاته، أو إيماءات، بمقدورها أن تُجبر حلقات مفرغة ظلت مضمرة طوال حقب تاريخية داخل أنساق النص بسبب عزوف الباحثين عن مواجهة النص الشعري.

إن ما يهمنا في هذه الدراسة هو وصف الحاضرة الإسلامية تلمسان في نص الاغتراب، وما زاد عن الوصف الذي تفرضه أحيانا لوعة الاغتراب والحنين، فتلك قيمة أدبية مضافة للنص الشعري، وهي في آخر الأمر إسهامات يتفرد بها الأديب في تحليل نفسية الشاعر.

وابن خميس التلمساني واحد من هؤلاء الشعراء الذين تميزت قصائدهم الاغترابية بالصدق والواقعية، واحتوت في مضامينها، وصف الوطن تلمسان الذي يمثل مقدسا في ذاكرته ووجدانه يذكره كلما انتابته نوبة القريض، فيفضي بمفاجعة وشجونه، فتمده ذاكرته بوابل من الذكريات فينبري في وصف بلده الذي عايشه في طفولته وشبابه.

وقبل هذا وذلك فإن الباحث أو المؤرخ هو صانع فعاليات التاريخ بالاستناد إلى الوثيقة التاريخية، وبواسطتها تتم هندسة النص. وبها يعلو صرح البناء التاريخي ومهما كانت قوة الخيال سواء في وثيقة النص التاريخي أو الشعري فهي مقيدة بالشواهد الوثائقية[1].

من هو ابن خميس؟ ولد هذا الشاعر أبو عبد الله محمد بن خميس في حاضرة تلمسان حوالي منتصف القرن السابع وان جل من ترجم له لم يتعرضوا لنشأته أو مشيخته على وفرة عددهم، ومن هؤلاء الرحالة العبدري، ولسان الدين بن الخطيب، والأخوان ابنا خلدون عبد الرحمان ويحي، وأحمد المقري وابن مريم في البستان وغيرهم[2].

وفي ترجمة لابن الخطيب لسان الدين في عائد الصلة: "كان رحمه الله نسيج وحده، زهدا، وانقباضا وأدبا وهمة، حسن المشيبة، جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التصنع، بعيدا عن الرياء...فحل الأوان في النظم المطول أقدر الناس على اجتلاب الغريب...كتب بتلمسان عن ملوكها من بني زيان ثم فر عنهم وقد أوجس منهم خيفة، لبعض ما يجري بأبواب الملوك"[3]وأثناء إقامته بمدينة فاس، اتهم بالمروق والزندقة وهذه التهمة رفع لواءها ابن هدية القريشي[4] الذي اتهمه بالتفلسف والحيد عن الشرع علما وعملا.

والفلسفة عند ابن هدية كفر صريح، وقد أدى ذلك إلى محاكمته بمدينة فاس فانبرى له بعض الأعلام من أعدائه من فقهاء المالكية كالشريف أبي البركات وحاولوا استدراجه إلى الكمين الذي نصب له، لتسجيله في دفتر الزنادقه والخارجين عن الملّة، من الذين أُهدرت دماؤهم.

فخرج ابن خميس من مدينة فاس متوجها إلى بلده تلمسان ومنها وجه رسالة بخط يده إلى مشرف المدينة تلمسان أبي الفضل محمد بن يحي بن عتيق الحيدري، وقد نشرها ابن الخطيب كاملة في كتابة لإحاطة في أخبار غرناطة، [5] وقد شرح ابن هدية القريشي هذه الرسالة تحت عنوان "العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس"

واستفتح أولها بقوله:

"عجبا لها أيذوق طعم وصالها من ليس يأمل أن يمر ببابها"

تعد مدينة تلمسان زهرة الحواضر الإسلامية، في العصر الوسيط وهي المدينة التي سحرت الألباب رواء، وأبرزت أولي النهى بجمالها، وتبارى في إنشادها القائلون والشعراء، وبلغت في الحسن والبهاء ما لم تنله حاضرة في الغرب الإسلامي.

ومما جاء في بغية الرواد في وصف تلمسان "...مدينة عريقة في التمدن لدنة الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت بسفح جبل...عروسا فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين، تطل منه على فحص أفيح معد للفلح، تشق ظهور الأسلحة عن مثل السنمة المهاري...بها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه، ونمقت غروسه...وتخف نجار بها الخمائل الألفاف والألواح الأشبة والحدائق الغلب بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من الفواكه والرمان والتين والزيتون، إلى المنتزهات الرائعة والملاعب الحالية والمعاهد الكريمة وتصب اليها من علٍ أنهار من ماء غير أسن تتجاذبه أيدي المذائب والأسراب المكفورة تلالها، ثم ترسله إلى المساجد والمدارس والسقيات وعليه الدور والحمامات"[6]

ولم يتجاوز في حنينه وصف بلاده، ووصف معاناته بسبب مفارقتها وراح ينسج القصيدة تلو الأخرى، ويستفتح مطالعها بوصف تلمسان.

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو مني النفس لا دار السلام ولا الكرخ

وداري بها الأولى التي حيل دونها مثار الأسى لو أمكن الحَنق اللّبخ[7]

وإن مما يمكن أن يسجله الباحث من قريض ابن خميس حول أوصاف حاضرة تلمسان، معاهدها العلمية التي كان يتردد عليها طلاب العلم، ويديرها الأساتيذ من العلماء والراحلون اليها.

معاهـــد أنس عطلت فكأنها ظواهر ألفاظ تعمدها النســخ

وهو لا يفتأ يذكر طلاب العلم ومظاهر السمت، والوقار، والانضباط في طلب العلم والترفع عن كل ما يشين أو يعيب.

وإخوان صدق من لداتي كأنهم جآذر رمل عـجاف ولا بزخ

وعاة لما يُلقى اليهم من الهدى وعن كل فاحشة ومنكرة صلخ

هم القوم كل القوم سيّان في العلا شبابهم الفُرعان والشيخة السُّلخُ

ثم يصف شاعرنا ابن خميس مظاهر الاجتهاد، والدأب على التسجيل والحرص على التعلم وما كان للطلبة من البلغة والحرص على التدوين والحفظ .

كأن لم يكن يوما لأقلامهم بها صرير ولم يسمــع لأكعبهم جبخُ

ولم يك في أرواحها من ثنائهم شميم ولا في القضيب من لينهم ملخُ

ثم يشير إلى المؤهلات العلمية والأخلاقية التي كان يتحلى بها العلماء وشيوخ المعاهد، وهي السجايا التي كانوا يحرصون على بثها في طلبة العلم والمدرسين.

يربوننا بالعلم والحلم والنهى فما خرجنا بزُّولا حدنا برخ

ثم يشير إلى ظاهرة الكدّ والجد والتباري نحو شأو المراتب، وأن لا مجال لمن تأخر به سعيه لنيل المراتب.

إذا ما فتى تصدى منهم لغاية تأخر من ينحو واقصر من ينخو

ثم يبدي ابن خميس مشاعر الحسرة على فوات تلك الأيام التي كانت عليها حاضرة تلمسان حيث كان يهفو إليها طلاب العلم والمشايخ الذين كانوا يلقوا بعصى الترحال في هذه المدينة الجميلة.

مضوا ومضى ذلك الزمان وانسه ومرّ الصبا والمال والأهل والبذخُ

ولم يكن في أرواحها من ثنائهم شميم ولا في القضب من لينهم ملخ[8]

ومن القراءة التاريخية في النص الشعري لإبن خميس، ما كانت تزخر به مدينة تلمسان من القداسة، حيث كان يرقد في ثراها جملة من الأولياء، ومنهم القطب الرباني سيدي أبي مدين شعيب، فتحولت قرية العباد المحاذية للمدينة إلى مزار ديني ومقصدا لطلاب العلم والعلماء .

على قرية العباد مني تحية كما فاح من مسك اللّطيمة فائح

وجاد ثرى تاج المعارف ديمة تغص بها تلك الرُبى والأباطح

إليك شعيب بن الحسين قلوبنا نوازع لكن الجسوم نوازحُ

سعيت فما قصرت عن نيل غاية فسعيك مشكور وتجرك رابح[9]

كان الشيخ ابو مدين شعيب قطبا ربانيا، طارت شهرته في العالم الإسلامي، ومما جاء في ترجمته عن كتاب "أنس الفقير وعزّ الحقير" لابن قنفد القسنطيني "الشيخ العارف المحقق الواحد القطب أبا مدين، نفع الله به، هو شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي الأصل من أحواز اشبيلية كان زاهدا في الدنيا عارفا بالله تعالى وخاض بحارا من الأحوال، ونال من المعارف الربانية الآمال. ومقامه الخاص به الذي لا يلحقه فيه أحد، التوكل على الله تعالى، وكان له بسط وقبض، فبسطته بالعالم وقبضته بالمراقبة"[10].

وما جاء به ابن خميس في تعظيم هذا الولي ليس بدعا حيث لا يخفى على أحد، أنّه قلما يذكر اسم حاضرة من حواضر المغرب الإسلامي الكبير من غير أن يشفع بذكر اسم صالح مدفونا فيها، ويعتبره ساكنة تلمسان سادناً لها، وآذناً يزورون قبره، ويقيمون حوله سنويا المواسم، ويتوسلون به عند حلول الكوارث والأزمات[11]. ولم تكن الوثيقة الشعرية التي احتوت هذا الولي الصالح. وقفاً على ابن خميس بل هناك العديد من الشعراء المعاصرين له من الذين احتوت قصائدهم على مآثر تلمسان، ووصفوا معالمها التاريخية، ومن ثم أصبحت هذه القصائد نصوصا تاريخية، تتجلى فيها الصفات والمعالم وطرق العيش، والعلاقات الانسانية في الحاضرة، ولذا فهي تعد وثيقة وأصل تاريخ لا يمكن الاستغناء عنه في الكتابة التاريخية ومن هذه النصوص التي أبرزت مكانة شخصية أبي مدين شعيب الاشبيلي البجائي التلمساني قصيدة الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري الأندلسي[12]

واغدُ إلى العبّاد منها غدوة تصبح هموم النفس عنك بمعزِل

وضريح تاج العارفين شعيبها زره هناك فحبذا ذلك الـولي

فمزاره للدين والدنيا معـا تمحى ذنوبك أو كروبك تنجلى

ومما قاله الشيخ الطبيب أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي أحد أطباء الحضرة العلمية.

وعبادها ما القلب ناس ذمامه ... به روضة للخير قد جعلت حلا

به شيخنا المذكور في الأرض ذكره ... أبو مدين أهلا به دائمـا أهلا

لها بهجة تزري على كل بلدة ... بتاج عليها كالعـــروس إذا تجلى

ويضيف ابن خميس إلى المكان الديني التاريخي مكانا تاريخيا ضاربا في القدم مما يعني أن مدينة تلمسان من الحواضر القديمة التي شيدت عليها حضارات ولا زالت أثرها بادية للعيان، ومنها ساقية الرومي الأثرية التي كان يقصدها الناس لرواء والتنزه ومنهم ابن خميس القائل.

كتمت هواها ثم برح بي الأسى ... وكيف أطيق الكتم والدمع فاضح

لساقية الرومي عنـدي مزية ... وإن رغمت تلك الرواسي الرواشح .

فكم لي عليها من غدو وروحة ... تساعـدني فيها المنى والمنائح

فطرف على تلك البساتين سارح ... وطرف إلى تلك الميادين جامح[13]

مما يعني أن هذا الغدير الروماني كان محاطا بالبساتين الغناء، التي كان يقصدها الناس للاستجمام والراحة ومنهم الشاعر ابن خميس الذي كان يتردد على المكان، ويطلق العنان لطرفه على هذه البساتين الممتدة، ومصغيا لجريان الماء ذاهب السمع والبصر.

ومن الأماكن السياحية التي عرفت بها حاضرة تلمسان، شلال الوريط، الذي ما إن ذكرت المدينة إلاّ ذكر معها، وهي المعلمة التي ظلت عالقة في ذهن شاعرنا ابن خميس.

نسيت وما أنسى الوريط ووقفة ... أنافح فيها روضه وأفاوح

مطلا على ذاك الغديروقد بدت ... لإنسان عيني من صفاه صفائح

أماؤك أم دمعي عشية صدقت ... علية فينا ما يقول المكاشح

لئن كنت ملآنا بدمعي طافحا ... فإني سكران بحبك طافح

إن قراءتنا الوثائقية للنص الشعري، تجعلنا نستنتج الكثير من الحقائق والمعاني المختبئة داخله، فالمكان السياحي الوريط الواقع شرق المدينة فضلا عن كونه مكانا طبيعيا يمدّ الجهات الواقعة جنوب المدينة بمياه السقي لتلك البساتين المترامية، فإنه كان مكانا للتسلية والتخلص من متاعب الحياة. مثلما كان يعانيه الشاعر بن خميس من عطرته والمتربصين والمكاشحين له.

تعددت قصائد ابن خميس حول تلمسان، حتى لا تكاد قصيدة تخلوا من ذكر محاسن تلمسان، ممزوجة بالشوق والحنين، والترجي بالعودة إليها ولم تغنه عنها، محاسن وبهاء حاضرة غرناطة التي كانت هي الأخرى تعج بالصلحاء وطلبة العلم والعلماء، مما يدل على مكانة حاضرة تلمسان ومضاهاتها للحواضر والمدن الاسلامية.

ومما يمكن أن يضاف إلى النص التاريخي، من الشاهدة الشعرية هي أن حاضرة تلمسان تعرضت إلى محنة الحصار التي قاربت عقدا من الزمن وهي حادثة تاريخية أسالت أقلام المؤرخين والرحالة، وسجلوا ما كان يجري على أيدي المرينيين، وما شيدوه بجوارها من قصور ومبادي وأسواق فلا يفتأ ابن خميس يصور هذا المشهد والألم يعصره.

لعشرة أعوام عليها تجرمت إذا ما مضى قيظ بها جاء اهراء

يطنّب فيها عائثون وخرب ويرحل عنها قاطنون وأحياء

كأن رماح الناهبين لملكها قداح وأموال المنازل أبداء

ومما يمكن أيضا أن يستقى من الوثيقة الشعرية، أن حاضرة تلمسان تعرضت إلى حرب ضروس أتت فيها على مباهجها وجمالها، وتحولت أرجاؤها إلى أماكن للنهب والسلب، دون أن تجد الحاضرة من يخلصها من مخالب أمرائها.

فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى ... ترى هل لعمر الأنس بعدك إنساء

وهل للظى الحرب التي فيك تلتظي ... إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء

وهل لي زمان أرتجي فيه عودة ... إليك ووجه البشر أزهر وضاء[14]

لقد عاشت حاضرة تلمسان ظروفا مأساوية عصيبة، ونزلت بها محن أذهبت بهاءها وجمالها وعزلتها عن سائر المدن والحواضر، التي كانت تدر سيلا بشرياً وماديا نحوها وتعرض أهلها إلى محن قاسية، طيلة هذا العقد من الحصار، ولعل العديد من المؤرخين قد تعرضوا إلى هذه الأحداث في إطار الكتابة التاريخية في سياقها الشمولي واغفلوا بعض التفاصيل الهامة في هذا السياق، فلذلك على الباحث ألالّ يغفل على هذا الشتات من الأحداث في النصوص الشعرية التي غالبا ما تحتوي على حقائق ومستندات هامة تكمل بها الصورة والبناء التاريخي الذي قد يقدم صورة ناصعة لهذه الحقبة الحرجة من تاريخ المغرب الأوسط.

إن الوثيقة الشعرية لشعراء تلمسان ومنهم ابن خميس، تعد مرتكزا حقيقيا لمن يروم البحث والتقصي لأحداث حاضرة تلمسان إذ لا تزال بعض الثغرات والفجوات في حاجة إلى ترميم، والى مساءلة تاريخية لجميع أنواع الآثار التي بقيت من هذه الحاضرة.

ان العناية بتوثيق النص الشعري كشاهدة داعمة في البناء والصناعة التاريخية، قدم الكثير من الأقاليد لحلاقات ظلّت مبهمة لحقب زمنية طويلة، أو ربما تكون رُممت بافتراضات وتأويلات بعيدة عن النسج الحقيقي للواقعة التاريخية، هذا فضلاً احتواء النص الشعري وخصوصاً في الفترة الوسيطية على البناء الكامل للواقعة التاريخية من الابتداء الى الاكتمال الى الاختتام .

الهوامش:

1- عبد الرحيم الحسناوي، النص التاريخي، إفريقيا الشرق، 2011، ص 57

2- المهدي البوعبدلي، أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ، مجلة الأصالة، عدد 26-1975، ص 128

3- لسان الدين الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424-2003، ص 377

4- ابن هدية القريشي: هو أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القريشي، من أئمة التلمسان والأدب دو بصر الوثائق له تواليف جمة في فنون شتى، وفي المقربة العليا كان أصيل الرأي مصيب العقل مذكر لسلطانه بالخبر عينا عيله كاتب بليغا ينشئ الرسائل المطولة في المعاني الشاردة، ذا خط وافر في علم العربية واللغة والتاريخ، النباهي لما لقي تاريخ قضاة قرطبة أو كتاب المرقبة العليا فمن يستخف القضاء والفتياء تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية بيروت 2006 -1426 ص 146، ابن خلدون يحي بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد المواد تحقيق عبد الحميد حاجيات المكتبية الوطنية 1400-1980، ج1، ص 116

5- لسان الدين يحي الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص 401-42

6- ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ص 86

7- المقري التلمساني، نفح الطيب في غضن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، ج5، ص372.

8- المقري، المصدر السابق، ج5، ص 370

9- ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ص 87

10 - ابن قنفد القسنيطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ص11.

11 - عبد القادر الخلادي، أبو مدين الغوث رفيق تلمسان، 520- 594- 1126/ 1197، مجلة الأصالة، ص284.

12 - محمد بن يوسف القبسي التلمساني، عرف بالثغري لم يعرف عن منقبه وولادته ومماته إلا ما ذكره المازوني في نوازله بالشيخ الفقيه الإمام العالم العلامة الأديب الأريب الكاتب أبو عبد الله أخذ عن الإمام الشريف التلمساني وغيره، ابن مريم الميليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، 2014، ص 311- 392.

13 - ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ص87.

14 - المقري التلمساني: المصدر السابق، ص 377.